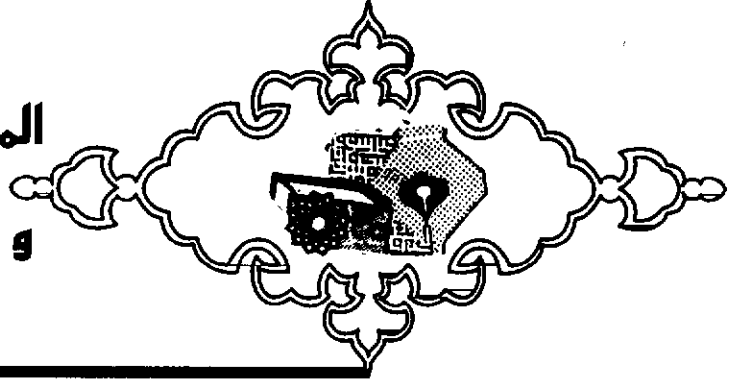


المعركة التاريخية بين الاستكبار و الاستضعاف فى القرآن الكريم



القسم الاول

رضيه طهمازى - مدرّس

العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط، فما دام الله سبحانه وتعالى واحداً، ولاسيادة الآله، والناس جميعاً عباده ومتساوون بالنسبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا اخوة متكافئين في الكرامة الانسانية والحقوق كأسنان المشط، على ما عبّر الرسول الاعظم ﷺ، ولا تفاضل ولا تمييز في الحقوق الانسانية ولا يقوم التفاضل على مقياس الكرامة عندالله إلا على اساس العمل الصالح تقوى او علماً او اجتهاداً «وأن ليس للانسان إلا ما سعى»^٦

إنّ هذه الجماعة البشرية ملزمة بتطبيق الحق والعدل ورفض الظلم والطغيان، وليست مخيرة بين هذا وذاك، حتى ان القرآن الكريم يسمي الجماعة التي تقبل بالظلم وتستسيغ السكون عن

خليفه...»^٣، ولكن «مفهوم الخلافة في الاسلام هو أن الله سبحانه وتعالى أناب الجماعة البشرية في الحكم وقيادة الكون واعماره اجتماعياً وطبيعياً، وعلى هذا الاساس تقوم نظرية حكم الناس لأنفسهم وشرعية ممارسة الجماعة نفسها بوصفها خليفة عن الله.

إنّ هذه الجماعة البشرية تدور حول محور واحد وهو المستخلف، أى الله سبحانه وتعالى الذى استخلفها على الارض بدلاً عن كل الانتاءات الاخرى، و الايمان بسيد واحد ومالك واحد للكون وكل ما فيه، وهذا هو التوحيد الخالص الذى قام على أساس الاسلام، وحملت لواءه كل ثورات الانبياء تحت شعار: «لا اله الا الله» «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون»^٤

إنّ العلاقات الاجتماعية يجب أن تقوم على أساس العبودية المخلصة لله وتحرير الانسان من عبودية الاسماء التي تمثل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت «وما تعبدون من دونه الا أسماء سميتوها...»^٥

إنّ روح الاخوة العامة تتجسد في كل

المقدمة:

«هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون»^١

إنّ القرآن الكريم هو الرسالة السماوية المنزلة من الله لعباده، والمنهج الذى أقره الله سبحانه لسعادة عباده في الدارين،... ففيه الاحكام وفيه المواعظ والعبر والحكم، وفيه كل شيء تذكرة، وفي آيات الموعظه، يطلب الله سبحانه من عباد الاعتبار بالامم الماضيه والاتعاظ بأحوالهم، ليعلموا ان الله سبحانه وتعالى لا تعجزه قوة الاقوياء واستكبار المستكبرين ومكر الماكرين....

«أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشدّ منهم قوة و آثاراً في الارض فأخذهم الله بذنوبهم...»^٢

مما لا يختلف فيه اثنان أن الله قد جعل الخلافة في مخلوقه «و اذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض

(١) الحشر، ٢٣

(٢) غافر، ٢١

(٣) البقره، ٣٥

(٤) البقره، ١٣٨

(٥) يوسف، ٤٥

(٦) النجم، ٣٩

الاستكبار المقيت «... إلا ابليس أبي و استكبر...».

٣- طبيعه ثالثه هي طبيعه البشريه، و هذه لها خصائصها و صفاتها المزدوجة.

فأما الطبيعة الاولى فهي خالصة لله، و قد انتهى دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق. و اما الطبيعتان الاخريان، فتستعرف كيف تتجهان.

أن ابليس - لعنه الله- لم يكن ينقصه أن يعلم ان الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء الا باذنه و قدره... ولكنه لم يطع الامر كما صدر اليه و لم ينفذ، بمنظور من عند نفسه:

«قال انا خير منه خلقتني من نار و خلقتنه من طين»^{١٣} فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه: «قال فاهبط منها فا يكون

الطاعة لمن أمروا بطاعته و الترفع على من نديروا الى متابعة»^{١١} «أفكلما جاءكم رسول ابليغ الامر بكم أنكم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهوى نفوسكم استكبرتم عليه تجبراً و بغياً في الارض؟... ففريقاً كذبتهم... أى فبعضاً منهم تكذبون كعيسى و محمد عليهما السلام، و بعضاً تقتلون كزكريا و يحيى عليهما السلام، فلا عجب بعد هذا ان لم تؤمنوا بدعوة محمد ﷺ، فان العناد و الجحود من طبيعتكم، و سجية عرفت عنكم، و لا غرابة في صدور ما صدر منكم»^{١١}.

الاستكبار من خلال الحديث:

«... العياشي عسن الامام الصادق ﷺ مثله و القمي عنه ﷺ، الاستكبار: هو أول معصية عصي الله بها. قال عليه السلام: فقال ابليس، رب اعفني السجود لآدم و انا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرب و لا نبي مرسل، فقال جلّ جلاله: لا حاجة لي في عبادتك و انما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تريد»^{١٢}.

أول معركة تاريخية في القرآن الكريم، و ظهور أول مستكبر من خلق الله تعالى، «في العالم العلوي»:

و اذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبي و أستكبر و كان من الكافرين.

«نجد في المشهد» مشهد ميلاد الانسان - خلقه الاول - ثلاثة نماذج من خلق الله:

١- نموذج الطاعة المطلقه و التسليم العميق: «و اذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا»

٢- نموذج العصيان المطلق و

الطغيان بأنها ظالمة لنفسها و يعتبرها مسؤولة عن هذا الظلم و مطالبة برفضه بأي شكل من الاشكال و لو بالهجرة و الانفصال اذا تعذر التغيير.^١ قال سبحانه و تعالى «ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض، قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك ماؤاهم جهنم و ساءت مصيراً»^٢.

«و اذ قلت للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبي و استكبر و كان من الكافرين»^٣.

و قبل أن ندخل في تفاصيل الموضوع، علينا أن نبحث في معنى كلمتي: الاستكبار و الاستضعاف، من خلال القرآن الكريم «التفاسير» و الحديث «الروايات»...

أما ما جاء في التفاسير لمعاني الاستكبار، فهو ما يلي:

الاستكبار: «طلب الترفع بترك الازعان للحق»^٤.

«المستكبر: هو الذي يطلب الكبر لنفسه باخراجه من القوة الى الفعل و اظهاره لغيره... و المتكبر: هو الذي يقبله لنفسه و يأخذه صفة له»^٥.

أبي و استكبر: «امتنع عما أمر به من السجود، و أظهر كبره و ترفع عن الحق»^٦ و استكبروا استكباراً: «أى استنكفوا عن اتباع الحق و الانقياد له»^٧.

«الكبير: العظيم الشأن الذي كل شيء دونه حقير

المتعال: المستعلي على كل شيء بعظمته»^٨.

«المتكبرون في الارض: هم الذين يعاندون الحق، و لا يخضعون لسلطانه»^٩.

أفتدرون الاستكبار ما هو؟ هو: ترك

(١) خلافة الانسان و شهادة الانبياء، الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (ره)، ص ١٢٨.

(٢) النساء، ٩٧.

(٣) البقرة، ٣٤.

(٤) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي (ره) ج ١٢، ص ٢٢٨.

(٥) نفس المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٣٤.

(٦) تفسير المراغي - أحمد مصطفى المراغي، ج ١، ص ٨٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابوالفداء، ج ٤، ص ٣٧١.

(٨) تفسير الصافي، ج ١، ص ٨٦٥.

(٩) تفسير الكاشف - محمد جواد مغنیه، ج ٩، ص ٣٩٤.

(١٠) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني.

(١١) تفسير المراغي، ج ١، ص ١٦٦.

(١٢) تفسير الصافي - الفيض الكاشاني، ج ١، ص ٧٨.

(١٣) اعراف، ١٢.

لك أن تتكبر فيها فأخرج انك من الصاغرين»^١.

إن علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه... وكذلك كل من يتلق أمر الله؛ ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه... وفي قضية قضى الله فيها من قبل يردّ بها قضاء الله في هذه القضية... انه الكفر اذن مع العلم ومع الاعتقاد. فابليس لم يكن ينقصه العلم، ولم يكن ينقصه الاعتقاد!... لقد طرد من الجنة، وطرد من رحمة الله، وحقت عليه اللعنة، وكتب عليه الصغار - الذل^٢.

الحقائق المستلهمة من قصة النشأة الانسانية ونشوء ولادة الاستكبار:

لمعرفة طبيعة الكائن الانساني وعلاقته وارتباطه بطبيعة الكون، ودوره فيه، وكذلك معرفة سبب نشوء ولادة الاستكبار في الذات الانسانية والغاية المتبغاة منها، لنوضح ذلك، نذكر الحقائق التالية:

١- التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الانساني. والتقدير الالهى المحيط بالكون والانسان، والذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لافلته عارضة، كما يجعل التوافق بينهما هو القاعدة.

٢- كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية، وضخامة دوره المنوط به، وسعة الافاق والمجالات التي يتحرك فيها، وتنوع العوالم التي يتعامل معها - في حدود عبوديته لله وحده - عما يتناقض تماماً مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون.

وكذلك تظهر ضخامة الدور الذي أعطاه بارئته له، فان عبارة كوكب و

سيادته بخلافة الله فيه - أياً كان حجم هذا الكواكب - انها لامر عظيم!

٣- ان هذا الكائن - بكل تفرد - ضعيف في بعض جوانب تكوينه، حتى ليتمكن قيادته الى الشر والارتكاس الى الدرك الاسفل، من خطام شهواته، وفي أولها ضعفه تجاه حب البقاء، وضعفه تجاه حب الملك... وهو يكون في أشد حالات ضعفه حين يبعد عن هدى الله، ويستسلم هواه، أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه اغوائه، في جهد ناصب، لا يكمل ولا يدع وسيلة من الوسائل!

٤- جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها، واستمرارها وضراوتها...

وهو - الشيطان - إنما يأتيهم من ناحية نقاط الضعف فيهم ومداخل الشهوة. ولا عاصم لهم منه الا بالتقوى، بالايان والذكر، التقوى على اغوائه وسوسته، والاستعلاء على الشهوات و إخضاع الهوى لهدى الله^٣.

المعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية:

«... لا تعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم»^٤.

«إنها المعركة مع الهوى باتباع الهدى... والمعركة مع الشهوات باستعلاء الارادة، والمعركة مع الشر والفساد في الارض، الذي يقود الشيطان أوليائه اليه، باتباع شريعة الله المصلحة للارض بعد المعركة في الضمير، والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان، فالشيطان وراءها جميعاً!

«... انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»^٥.

و الطواغيت التي تقوم في الارض لتضع الناس لحاكميتها وشرعها وقيمها و موازينها، وتستبعد حاكمية الله وشرعه والقيم والموازين المنبثقة من دينه... إنما هي شياطين الانس التي توحى لها شياطين الجن. والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه وليست بعيدة عنها.

«إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون»^٦. وهكذا تتركز المعركة الكبرى الطويلة الضارية في المعركة مع الشيطان ذاته، ومع أوليائه. ويشعر المسلم وهو يخوض المعركة مع هواه وشهواته؛ وهو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الارض وأتباعهم وأذنانهم؛ وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشئون في الارض من حولهم. يشعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك كلها، أنه إنما يخوض معركة واحدة جدية صارمة ضارية، لان عدوه فيها مصرّ ماض في طريقه وان الجهاد - من ثم - ماض الى يوم القيامة، في كل صورة ومجالته»^٧.

(١) اعراف، ١٣

(٢) تفسير في ظلال القرآن - السيد قطب - ج ٨، ص ٢٧٧

(٣) تفسير: في ظلال القرآن - للسيد قطب، ج ٨، ص ٢٨٤

(٤) الاعراف، ١٦-١٧

(٥) الاعراف، ٢٧

(٦) الاعراف، ٣٥

(٧) في ظلال القرآن - ج ٨، ص ٢٨٤

ظهوره جبهة الخير وجبهة الشر: ولقد سجد الملائكة امثالاً بالامر العلوي الجليل، «الا ابليس ابي و استكبر وكان من الكافرين»^١.

و هنا تتبدى خليفة الشر مجسمة: عصيان الجليل سبحانه! و الاستكبار عن معرفة الفضل لاهله. و العزة بالاثم، و الاستفلاق عن الفهم.

و الان قد انكشف ميدان المعركة- الخالده، المعركة بين خليفة الشر في ابليس، و خليفة الله في الارض، المعركة الخالده في ضمير الانسان المعركة التي ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الانسان بارادته و عهده مع ربه، و ينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الانسان لشهوته و يبعد عن ربه:

فالارادة هي مفرق الطريق، و الذين يستمتعون بلا ارادة هم من عالم الهيمه و يا للتجيز المصور: "أزْهَمَا" ... انه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها، و انك لتكاد تلمح الشيطان و هو يزحزحها عن الجنه، و يدفع باقدامها فترزل و تهوى!....

عندئذ تم التجزبه: نسي آدم عهده، وضعف أمام الغواية. و عندئذ حقت كلمة الله^٢.

معركة النفس مع الروح:...«ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي...»^٣

متى تتولد حالة الاستكبار لدى الانسان؟

بعد أن أبي الشيطان و استكبر عن السجود لخليفة الله، و بذلك لم يمثل لامر خالقه، كان جزاؤه أن يصبح طريداً من ساحة القدس الالهيه، و بعيداً عن رحمة

خالقه، فأخذ عهداً على نفسه، و تحدياً لخالقه، أن يكون قاعداً لصراط عباد الله المستقيم، و ذلك لاغوائهم و اخراجهم عنه، بانتقال حالته تلك «الاستكبار» إليهم، إلا منهم المخلصين الذين استشاهم الله خالقهم...

«و أما لبسهم على انفسهم- المستكبرين- فهو بتخليهم الى انفسهم أن الحق باطل و أن الباطل حق، ثم قدامهم على الباطل... فإن الانسان، و إن كان يميز الحق من الباطل «فطرة الله التي فطر الناس عليها...»^٤، و كان تلهم نفسه فجورها و تقواها «فألهمها فجورها و تقواها»^٥، و أن تقوية جانب الهوى و تأييده روح الشهوة و الغضب من نفسه تولد في نفسه ملكة الاستكبار عن الحق، و الاستعلاء على الحقيقه فتجذب نفسه اليه، و تغتر بعمله، ولا تدعه يلتفت الى الحق و يسمع دعوته، و عند ذاك يزين له عمله، «زين الشيطان له سوء عمله»، و يلبس الحق بالباطل، و هو يعلم كما قال تعالى: «أفرأيت من اتخذ الهه هواه و أضله الله على علم و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة...»^٦.

و قال تعالى: «قل هل ننبئكم بالاخرين اعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»^٧.

و تبقى النفس الشيطانية في صراع دائم مع الروح الالهيه الطاهرة «و نفخنا فيه من روحنا...»^٨ ... و يكون الطرف الفائز، ذلك الطرف الذي تمناه و ربناه صاحبه- الانسان - باختياره و ارادته... فتى ما كانت الروح هي الجانب المنتصر، يكون صاحبها: «قد أفلح من زكاه»^٩.

و متى ما تكون النفس الشيطانية الامارة بالسوء هي الغالبة، يكون صاحبها «وقد خاب من دنسها»^{١٠} و من لم يحكم ارادته، و يتبع الخط الرباني، يبقى في لبس و ضلال و خسران، حيث قال سبحانه و تعالى: «قل هل ننبئكم بالاخرين اعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»^{١١}.

الاصرار على الضلال، بعلم، نتيجة رسوخ العادات، و عدم التخلي عنها: «اننا لو تعمقنا في أحوالنا أنفسنا، ثم أخذنا بالنصفه، عثرنا على عادات سوء نقضى بسوئها، لكننا لسنا نتركها، لرسوخ العادة، و ليس ذلك إلا من الضلال على علم، و لبس الحق بالباطل على النفس و التلهي باللذة الخيالية و التوكل اليها عن التثبت على الحق و العمل به، أعانتنا الله تعالى على مرضاته»^{١٢}.

يتبع في العدد القادم

(١) بقره، ٣٤

(٢) تفسير: في ظلال القرآن- السيد قطب - ج ١، ص ٦٨

(٣) يوسف، ٥٣

(٤) الروم، ٣٠

(٥) الشمس، ٨

(٦) تفسير الميزان، ج ٧، ص ٢١

(٧) الكهف، ١٠٤

(٨) تحريم، ١٧

(٩) الشمس، ٩

(١٠) الشمس، ١٠

(١١) الكهف، ٤

(١٢) تفسير الميزان، ج ٧، ص ١